٥٢

**مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:**

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ (١)

**فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:**

يقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ ﴾ التكذيب والكُفر، والجحود والفساد. أي: أدخلناه ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بالحقِّ ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ أي: حيثُ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي: عـذابُ الله بغتـةً وهم لا يشعـرون ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ أي: يتمنَّون - حين شاهدوا العذاب - أنْ لو أُنظِرُوا قليلاً؛ ليعملوا - في زعمهم - بطاعة الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ

---

(١) الشعراء: ٢٠٠- ٢٠٩.

(٢) غافر: ٥٢.



obeikandi.com

يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

فكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وكافرٍ إذا شاهد عقوبته نَدِمَ ندماً شديداً.

هذا فرعون لما دعا عليه موسى عليه السلام بقوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)

فأثَّرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذابَ الأليم ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٤)

---

(١) إبراهيم: ٤٤، ٤٥.
(٢) يونس: ٨٨، ٨٩.
(٣) يونس: ٩٠، ٩١.
(٤) غافر: ٨٤، ٨٥.

وقوله: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ إنكاراً عليهم، وتهديداً لهم؛ فإنهم كانوا يقولوا للرسول - تكذيباً واستبعاداً -: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ (١)، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٢)

ثم قال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ أي: لو أخَّرناهُم، وأنظرناهم، وأمْلَيْنا لهم بُرهةً من الدَّهر وحيناً من الزمان وإنْ طال، ثم جاءهم أمرُ الله، لاَ شَيءَ يُجدي عنهم، ولا ما كانو فيه من النعيم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ (٤)، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

وفي الحديث: « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ الْكُفَّارِ، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً. فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلانُ، هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ: لا، مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلاءً، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلانُ، هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أَوْ بَلاءٌ ؟ فَيَقُولُ:

(١) العنكبوت: من الآية ٢٩.
(٢) العنكبوت: ٥٣- ٥٥.
(٣) النازعات: ٤٦.
(٤) الليل: ١١.

مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلا بَلاءٌ »[1]

ثم قال تعالى مُخبراً عن عَدْله في خَلقه: أنه ما أهلك أُمَّةً من الأمم إلاَّ بعد الإعذارِ إليهم، والإنذارِ لهم، وبعثة الرسلِ إليهم، وقيام الحُجَّة عليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4]

ذاك ما ذكره ابنُ كثير في تفسير هذه الآيات ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

ولا شكَّ أنَّ استحضارَ هذه الحقيقة، واليقينَ بها يُعينُ الإنسانَ على التوازن والإعتدال فيما آتاه الله من متاعِ الآخرة وهو يأخذُ نصيبه من الدنيا؛ فالدنيا لا تصلح إلا بإصلاح الآخرة، والآخرة لا يُطلَبُ الفوزُ فيها إلا بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا.

(١) ابن ماجة: كتاب الزهد، باب صفة النار، رقم ٤٣١٢.
(٢) الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) الإسراء: من الآية ١٥.
(٤) القصص: ٥٩.

فمن فتنته الحياةُ الدنيا بزينتها، وشغلته عن الآخرة، فليذكر هذه الحقيقة ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝ ﴾ ومَن طلب الفوزَ في الآخرة فليعلَم أن دُنياه مزرعةٌ لها، فليُصلح قَصْدَه، وليُحسن عملَه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [1]

وهذا التوازن والإعتدال جديرٌ أن يُحقّقَ في دُنيا الناس سلاماً أيَّ سلامٍ؛ لأن التنافس على الدنيا دون رَجاءٍ في الآخرة مُدمِّرٌ لها، مُهْلِكٌ لأهلها.

والذين يريدون الآخرةَ دون الأخذِ بالأسباب يخسرون دُنياهم وأُخراهم ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ ﴾ [2]

إن سَعي الآخرة صلاحٌ وإصلاحٌ في الدنيا، وفوزٌ ونجاةٌ في الآخرة.

ألاَ فلنتدبر كتابَ ربِّنا، ولنَهتدِ به في كُلِّ شأنٍ من شُئوننا؛ حتى لا نَقعَ فيما حذَّرنا منه نبيُّنا، وخشيَ علينا منه، حيث قال: « فَوَاللَّه مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » [3]

---

(١) الزلزلة: ٦- ٨.

(٢) الإسراء: ١٩.

(٣) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم ٥٢٦١.



obeikandl.com